نكبة فلسطين في أدبنا القومي ..

بقلم كامل السوافيري

نريد بالقومية العربية ذلك الشعور الموحد الذي يجمع الامة العربية الواحدة التي تسكن الوطن العربي الممتد ما بين حدود ايران والخليج الفارسي شرقا والمحيط الاطلسي غربا وما بين تركيا والبحر الابيض المتوسط شمالا والصحراء الافريقية الكبرى والحبشة والمحيط الهندي جنوبا والتي تربط بين ابنائها الى جانب اللغة العربية روابط التاريخ والبيئة الجغرافية والمصالح المشتركة والدين .

ونريد بالنثر الخطبة والمقال والكتاب والقصة والمسرحية التي يتناول كل منها القومية العربية وهذه الكلمة مقصورة على الخطبة والمقالة والكتاب .

وقد ظهرت الاتجاهات القومية في النثر منذ بداية القرن التاسع عشر حيث شعت على دنيا العرب اضواء النهضة الحديثة التي انعكست في ادب الكتاب الذين اخذوا يحاربون الطغيان ويدعون الى التحرر من النير الاجنبي ويهيبون بالشعوب العربية ان تستيقظ وتستعيد ماضيها الزاهر ومجدها الماضي.

ولم يكن الكتاب والخطباء ينتمون الى اقليم بعينه او قطر بذاته ولكنهم كانوا يمثلون الامة العربية كلها ففيهم المصري والشامي والعراقي والحجازي ولكن الهدف الذين كانوا يرمون اليه كان هدفا واحدا وغاية واحدة وهي التحرر من كل عبودية ، والدعوة الصادقة الى البعث القومي واليقظة العربية وقد اشرع الكتاب اقلامهم وسخر المفكرون انتاجهم لليقظة والبعث والتحرر .

وكما عبر العرب عن آلام امتهم وايقظوا وعيها عبر الكتاب والمفكرون عنها ايضا وهكذا لم يتخلف النثر عن الشعر في هذا المضمار بل سارا معا جنبا الى جنب في تحقيق غاية واحدة فنرى في مصر الافغاني ومحمد عبده ولطفي السيد وقاسم امين وسعد زغلول ومصطفى كامل الى جوار شوقي وحافظ ومحرم .

ونرى في الشام الكواكبي واديب اسحق وشكيب ارسلان الى جانب ابي ريشه والعطار وشفيق جبري وفي فلسطين سعيد الكرمي والنشاشيبي والنبهاني ورفيق التميمي الى جانب طوقان وابي سلمى ومثل ذلك في العراق الذي وقف كتابه الى جوار الرصافي والزهاوي والجواهري والكاظمي .

ولا يسمح المقام لنا ان نورد الشواهد ونزجي الامثلة ولكننا نكتفي بشاهدين يؤيدان ما ذهبنا اليه .

يقول المغفور له مصطفى كامل في احدى خطبه :

اذكروا مصر فان من ذكراها ذكرى آلامها وذكرى الالام تجر حتما الى ذكر عوامل الشفاء .

اذكروها كما يذكر الولد الحنون امه الشفيقة وهي على سرير المرض .

اذكروها فمن المستحيل ان يرى العاقل النار في داره والداء في شخص امه ويهمل النار ويهمل الداء ومن المستحيل كذلك ان يكون الوطن في خطر ونحن نيام وان يعمل الاجنبي لامتلاك بلادنا وسلب حياتنا بل لاستعبادنا واسترقاقنا ونحن هامدون لا عمل ولا حراك .

ويقول المرحوم اسعاف النشاشيبي :

اللغة هي الامة والامة هي اللغة ، وضعف الاولى ضعف الثانية وهلاك الثانية هلاك الاولى ، واللغات ميراث اورثه الاباء والابناء واحزم الوراث صائن ما ورث ، واسفههم في الدنيا مضيع ، وانا امم اللسان الضادي العربي، وان لغتنا لهي العربية وهي الارث الذي ورثناه ـ وانا ولحقيقون ـ والآباء هم الآباء ، واللغة هي اللغة ـ بأن تبقى عروبة الجنس ، وعربية اللغة .

رافق الكتاب النهضة القومية الحديثة فأججوا نارها اولا بما اشعلوه في نفوس الامة من حماس وطني بخطبهم ومقالاتهم النارية التي الهبت القلوب ، وأججت الصدور ولعل هذه المرحلة الاولى التي وقف فيها النثر يوقظ الوعي ، وينبه الشعور فلما استيقظ الوعي ، وتنبه الوجدان انتقل النثر الى المرحلة الثانية مرحلة دفع الامة للعمل ، وانطلاقها للبعث ، وثورتها على الظلم والطغيان .

ولولا سحر الكلمة الادبية ـ مقروءة او مسموعة ـ ما وجدنا الالوف من ابناء الامة العربية في مصر والشام والعراق وفلسطين يجودون بدمائهم الزكية ، ويقدمون ارواحهم الطاهرة قربانا للتحرر القومي ، وثمنا للاستقلال السياسي ، وتخلصا من قيود الذل والاستعباد .

ثم بدأت المرحلة الثانية للنثر حينما خاضت الامة معركة الحرية ضد الاستعمار بألوانه واشكاله المقنعة والظاهرة فانتصرت عليه واخذت تجني ثمار هذا النصر المؤزر فتصلح الفاسد من الانظمة ، وترفع مستوى طبقات ابنائها ، وتحرر النفوس من الخوف والقلق ، وأخذ النثر يسير في هذه المرحلة الجديدة ، يصور الاوضاع الاجتماعية ، ويعالج الامراض المتفشية ، ويدعو الى حياة افضل وأسمى يتمتع فيها كل فرد من افراد الامة العربية بالحرية والسيادة والرفاهية .

وامتدت نهضة النثر في العصر الحديث الى اليوم ووجدنا كتابا افذاذا يوجهون صرخاتهم في دنيا العرب داعين الى وحدة الصف واتحاد الرأي، وجمع الكلمة وقد كثر عدد هؤلاء الكتاب فلم يقف بهم الامر عند حد المقالة ولكنهم اتجهوا في مناصرة القومية العربية الى انشاء البحوث، وتأليف الكتب التي وصل عددها الى عشرات وفي مقدمتها كتب الأستاذ ساطع الحصري وعلي ناصر الدين وزريق .

وكانت نكبة العرب القومية في فلسطين ينبوعا تفجرت منه عواطف الكتاب والادباء ووحيا والهاما للشعراء ، وموضوعا للتأليف المستمر في الاسباب والنتائج والعلاج .

ولن يتسنى لنا ان نوضح كل الجوانب ولكنا نشير اشارات سريعة الى

الكتب التي ظهرت بعد هذه النكبة في الناحية السياسية المتصلة بالقومية العربية اوثق اتصال فنذكر منها :

معنى النكبة للاستاذ قسطنطين زريق ، وعبرة فلسطين للاستاذ موسى العلمي ، من وحي فلسطين للاستاذ احمد رمزي ، بعد النكبة للاستاذ قدري طوقان .

اما الخطب والمقالات فلا تقع تحت حصر ولكن العدل يقتضينا ان نذكر كاتبا واحدا نشر ما يزيد على ٢٠ مقالا في القومية العربية وفي الدعوة الى وحدة العرب وتضامنهم ونبذ كل فرقة بينهم وهو المرحوم الاستاذ نقولا الحداد ولما لم يجد في حياته صدى لكتابته حطم القلم وفي نفسه لوعة وحسرة .

ولا نستطيع ان نسرد اسماء كل الكتاب الذين تشع القومية العربية في مقالاتهم وتلمح الايمان القومي في تفكيرهم لانهم اكثر من ناحية ولانهم يمثلون اجزاء الوطن العربي الكبير من ناحية اخرى .

ولكن هذا لا يمنعنا من ايراد نموذجين الاول للاستاذ احمد حسن الزيات من مقال نشره سنة ١٩٣٣ في مجلة الرسالة .

« لا تستطيع مصر الاسلامية الا ان تكون فصلا من كتاب المجد العربي لانها لا تجد مددا لحيويتها ، ولا سندا لقوتها ولا اساسا لثقافتها الا في رسالة العرب اما ان يكون لادبها طابعه ، ولفنها لونه فذلك قانون الطبيعة لان الاداب والفنون ملاكها الخيال ، والخيال غذاؤه الحس ، والحس موضوعه البيئة والبيئة من اعمال الطبيعة يختلف باختلافها في كل قطر .

اذكروا دائما ان الروح التي تنفحونها هي روح عمرو وان اللسان الذي تنشرون به مجد مصر هو لسان مصر وان القيثار الذي توقعون عليه الحان النيل هو قيثار امرىء القيس وان آثار العرب المعنوية لا تزال تغمر الصدور وتملأ السطور وتغذي العالم وهي ادعى الى الفخر وابقى على الدهر واجدى على الناس . »

النموذج الثاني للاستاذ عمر الدسوقي من مقال نشره في مجلة الرسالة سنة ١٩٤٨ تحت عنوان واعتصماه وفيه يقول : « اخفا أننا امة هازلة لا تدرك الخطر الداهم ولا تقدر الخطب الجاسم ولا تخبر العدو الظالم . هل ستمثل مأساة الاندلس على مسرح التاريخ ثانية فيلقى بعرب فلسطين في البحر كما ألقي عرب غرناطه من قبل ويومئذ نجهش بالعويل والبكاء فيقال لنا كما قيل لاؤلئك ملك لم تحافظوا عليه .

ان الامر جد فنصرة فلسطين لا تدعو اليها لحمة القرابة والنسب ولا صلات التاريخ والادب ولا حرمة الجوار ونخوة العرب فحسب ولكن تحثنا اليه المصلحة فدفاع مصر عن فلسطين دفاع عن اخ شقيق ودفاع عن مصلحة مشتركة ودفاع عن كسرة الخبز وموارد الحياة وأسباب العزة فليكن كل مصري بل كل عربي اين كان محله معتصما ينادي واوفارسا يرتجي .

يتلقى الندى بوجه حيي ... وصدور القنا بوجه وفاح
هكذا هكذا تكون المعالي ... طرق الجد غير طرق الراح

***

اخالني بعد هذا العرض قد وضحت موقف النثر من القومية العربية وبينت الدور العظيم الذي اداه في المعركة التي خاضتها ضد الاستعمار الاجنبي فهو كما فعل زميله الشعر ايضا قد ايقظ الوعي ودفع للتحرر وبعث في الامة روح الجهاد المقدس من اجل حريتها واستقلالها وواكب الوثبات الوطنية والثورات التحررية في دنيا العرب وفي مصر حين ثارت على الفرنسيين وحين ثارت على الانجليز وفي سوريا حين ثارت على الفرنسيين وخطت في سفر الخلود صفحات البطولة والمجد وفي العراق حين تمرد على الظلم وحطم اغلال الاستعباد البريطاني وفي فلسطين التي كافح شعبها اقوى دول الارض وأخبث شعوب العالم ثلاثين سنة وزرع ارض بلاده بالضحايا والشهداء وفي الجزائر التي لا تزال تقدم ابنائها في ميادين الشرف كل يوم وفي عمان وفي كل مكان .

فللنثر مقالا كان او خطبة عامل من اعظم العوامل التي وحدت المشاعر بين ابناء الامة العربية وخلقت فيهم وعيا قوميا ثوريا وطنيا اظهر اثره واضحا في الوقوف الى جانب مصر الحرة اثناء العدوان الغاشم عليها وهو الذي سعر روح النضال واجج جذوة الكفاح وظل وفيا لرسالته في خدمة القومية العربية ومحافظا على روحها ومشيدا برسالتها راسما لها طريق التقدم لتحقيق الامال المنشودة .

حقق الله امال الامة العربية في الوحدة الشاملة والسيادة الكاملة

كامل السوافيري